مجلة المرابط

العدد : ٢١٧ الموافق في ذو القعدة ١٤٢٠ هجري ٣ / ٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : الغرب الذي نعيش فيه هل نفهمه ؟ (٢)	بقلم : أ. متولي موسى

حتى نفهم نحن - معشر المسلمين - الغرب الذي نعيش فيه لا بد لنا من التعرف على التيارات الفكرية والمذهبية التي وجدت فيه ، والتعرف على تياراته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من خلال أهل الخبرة والاختصاص ، ومعرفة ما تحتويه هذه التيارات من حقائق وأباطيل ، وتتبع الظروف التي أدت إلى نشأتها وتشكلها على هذه الصورة ، فإن كثيراً ممن فتنوا بها أخذوها على أنها أمر واقع ، مع اعتقادهم أنها ذات وجود طبيعي ، ولا بد أن تسود ، ولا يضعون في حسابهم أن ظروفاً محلية في الغرب وعالمية خارجه ، هي التي جعلت هذه التيارات والمذاهب الفكرية تتكون ، وأنه لو كانت هناك ظروف أخرى لتكونت تيارات ومذاهب فكرية غير هذه التي وجدت .. !!

بعبارة أوضح فإن التيارات والمذاهب الفكرية الوضعية التي وجدت في الغرب إنما هي انعكاس لظروف محلية وأخرى عالمية ، وليست كما هو الواقع في حسِّ الغربيين ومن تابعهم من غيرهم ، قيماً راسخة ، ولا مذاهب حتمية ، بحيث لو سادت في الغرب نفسه ظروف أخرى ، لتكونت مذاهب وتيارات مغايرة ، وذلك واقع باستقراء التاريخ وتغير الظروف والأحداث .

وسوف يعالج هذا المقال باختصار شديد أهم التيارات الفكرية والمذاهب التي ظهرت في الغرب ، مع بعض التفصيل على التيار الأهم والذي استمر لقرون طويلة ، وذلك بعد أن ركز المقال السابق على فكرة العالمية والقومية والوطنية ، على النحو الآتي :

ثانياً : الشيوعية والديمقراطية والعقلانية :

وجدت أطروحات كثيرة في الغرب ، ولكن بعضها توفرت له ظروف مكنت من قبولها وتهيأت الأسباب التي أفرزت حزباً سياسياً أو مجموعة من المفكرين الذين حملوا الفكرة وكونوا تياراً أو أنصاراً عملوا على التمكين لهذا الفكر أو المذهب ، وبعضها أصبح أثراً بعد عين ، ومن ذلك :

١) **الشيوعية** : والتي ولدت فكرة عند بعض العمال الذين عانوا من الاضطهاد ، ثم تطورت إلى تصور شامل للكون والحياة منبثق عن مذهب اقتصادي ، وتمكن في عدد من الدول الكبرى والصغرى ، وسواء كان المذهب الاقتصادي هو الأصل ، وكانت الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية التي صاحبته مجرد انعكاس له كما تقول النظرية الشيوعية أو غير ذلك ، فإن هذا المذهب انهارت أنظمته في الحكم في العقد الأخير من القرن الميلادي الماضي ، وانحصرت أفكاره في تصورات تحملها أحزاب

سياسية في عدد من البلاد التي حكم فيها هذا المذهب .. !!

٢) **الديمقراطية** : ومعناها الحكم الذي تكون السلطة فيه للشعب ، وتطلق على نظام الحكم الذي يكون فيه الشعب رقيباً على أعمال الحكومة ، ويكون لنواب الشعب (في الصورة الأخيرة) حق إصدار التشريعات ، وأول من مارس الديمقراطية هم الإغريق في مدينتي « أثينا » و « اسبرطة » . وكان كل أفراد الشعب من " الرجال لا النساء " في كل من المدينتين يشاركون في حكم المدينة ، فيجتمعون في هيئة عامة فيتشاورون في كل أمور الحكم ، وينتخبون الحاكم ، ويصدرون القوانين ، ويشرفون على تنفيذها ، ويضعون العقوبات على المخالفين . فكان حكم " الشعب من الذكور " مطبقاً بصورة مباشرة في كل من المدينتين ، ولذلك ظهرت مقولة " حكم الشعب للشعب من أجل الشعب " .

ولكن هذه الصورة من صور الديمقراطية انتهت بانتهاء « حكومة المدينة الواحدة » في كل من « أثينا واسبرطة » ، وإن ظلت فكرة الديمقراطية كامنة في الغرب خلال الفترة التي سيطرت فيها الكنيسة على أوروبا باسم الدين المسيحي في القرون الوسطى - والتي تعرف في الغرب باسم قرون الظلام - ثم عادت فكرة الديمقراطية إلى الظهور من جديد منذ قرون - يطلق عليها في الغرب عصر « النهضة والتنوير » - ولكنها تمثلت في أحزاب سياسية تتداول الوصول إلى السلطة والحكم عن طريق آلية الانتخابات والتي تختلف صورة الحكم فيها من بلد لآخر فيما يعرف بالنظام الرئاسي أو النظام البرلماني ..

والملاحظ أن هذه الآلية تتعرض الآن لهزة عنيفة أوقعت الغرب في تناقض فظيع عندما كان اختيار الشعب في النمسا قبل أسابيع سبباً في وصول حزب يميني إلى المشاركة في الحكم ، فضلاً عن أن ممارسات بعض الأحزاب أظهرت خللاً يقال : إنه بسبب الأنظمة الداخلية في الحزب ، كما هو حادث الآن في ألمانيا مع الحزب الديمقراطي المسيحي الذي شارك في الحكم لمدد طويلة بالنسبة لتاريخ ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية .. !!

٣) **العقلانية** : وسميت كذلك لأنها تنادي بالتفسير العقلي لكل شيء في الوجود ، أي تمرير كل شيء في الوجود من خلال العقل لإثباته أو نفيه أو تحديد خصائصه ، وهذا التيار الفكري شكل مذهباً في الوجود من زمن بعيد ، برز بصورة قوية في الفلسفة الإغريقية ، وكان من أعلامه البارزين كل من « سقراط وأرسطو » .

يقول الأستاذ محمد قطب : " ولقد ظلت الاتجاهات الفلسفية الإغريقية - التي تمثل العقلانية قسماً

بارزاً منها - تسيطر على الفكر الأوروبي ، حتى جاءت المسيحية الكنسية فغيرت مجرى ذلك الفكر في انعطافة حادة ، تكاد تكون مضادة لمجراه الأول الذي استغرق من تاريخ الفكر الأوروبي عدة قرون . فلم يعد العقل هو المرجع في قضايا الوجود ، إنما صار هو الوحي - كما تقدمه الكنيسة - وانحصرت مهمة العقل في خدمة ذلك الوحي في صورته الكنسية تلك ، ومحاولة تقديمه في ثوب - معقول - " [1]

وبعد قرون سميت في أوروبا بـ « عهود الظلام » خرجت أوروبا على الكنيسة ، وانفصل الدين عن الدولة وظهرت فكرة « العلمانية » ، وتعالت الأصوات بالمناداة بحرية الفكر - والتي هي في حقيقتها نبذ الدين والقبول بالإلحاد - ذلك أن التفكير الديني عند فلاسفة التنوير معناه الخضوع للقيد الذي قيدت به الكنيسة العقول وحجرت عليها ومنعت التقدم العلمي ، وقد صرح بذلك شاهد من أهلها فقال : « فالمذهب العقلي يتجه نحو إزالة الله وما فوق الطبيعة من الكون .. فإن نمو المعرفة العلمية وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلي نحو الكون » [2]

والغريب في هذا الأمر أن أهم الأسباب التي من أجلها رفضت العقلانية التجريبية أن تعترف بوجود الله هو أن الله " لا تدركه الأبصار " أي أنه غيب لا يدخل في عالم الحسّ ، فقالوا " الطبيعة " هي الخالقة !!! ولكل عاقل أن يتساءل : ما هي هذه " الطبيعة " الخالقة ؟! هل تدركها الأبصار ؟ أم أنها أيضاً غيب لا يدخل في عالم الحسّ ؟! . إن الذي تدركه الأبصار هو " الطبيعة " المخلوقة لا " الطبيعة " الخالقة .. وهذه لا يختلف وضعها سواء آمن الإنسان بالله تعالى قائلاً " لا إله إلا الله " أم آمن الإنسان بالإله الباطل .. فهل من مدكر ؟!

الخلاصة : لقد وقعت الفكرة العقلانية في مأزق تاريخي ، ودخل الغرب في ضلال مبين ، فقد طالب أصحابها - وبسبب واقعي - بالخروج من سلطان الكنيسة وطغيانها وممارساتها التي حجرت من خلالها على العقول ومنعت التقدم العلمي ، وضغطت على الناس ليتركوا الدنيا باسم الرهبانية التي ابتدعتها ، وعدم أخذها بأسباب إصلاح الحياة والبيئة ، ولكن هؤلاء - فلاسفة التنوير - تجاهلوا أن الكنيسة قد شوهت الدين الحق ، وسيطرت بأهواء ابتدعها رجال الكنيسة . وكانت النتيجة هي إقصاء الدين - أي دين - وأبْعد الإنسان وفق هذه العقلانية عن كل دين ، وأعيد إلى التراث القديم في الحضارتين الإغريقية والرومانية ، ففكرة التنوير إنما ترجع إلى هذا التراث .

ولقد وقع الفلاسفة المعاصرون في خطأ أشد عندما روجوا لفكرة الحداثة وما وراء الحداثة باسم العقلانية ، إذ أن هؤلاء يقولون بنظرية النسبية وعدم وجود ثوابت مطلقاً ، وبالتالي فالغرب ينحدر في

مستنقع الضياع الذي لا يؤمن بقيم ثابتة أو مبادىء ثابتة في الواقع الاجتماعي والأخلاقي .. !!

ثالثاً : أهم ملامح المنظومة الغربية المعاصرة :

باستقراء واقع المجتمعات الغربية بعد الحداثة وإعطاء الشرعية للفساد الخلقي والفوضى الجنسية ، يتبين لنا أن الحياة تحولت إلى البحث عن « المتاع » الذي أدى إلى انتشار الرذيلة واختفاء الفضيلة ، وقد ظهر ذلك على النحو الآتي :

١- **إعطاء سلطة التشريع ومنهج الحياة للإنسان :**

(١) **تحكيم العقل في سن القوانين والتشريعات** : وقد حدث ذلك للأسباب التي جعلت العقلانيين ينادون باستبعاد الدين ، وأضافوا إلى ذلك أن الوحي يعتمد على نصوص جامدة لا تسمح بمواكبة التطور ، فاجتهد أهل العقل والتنوير في سن القوانين التي تهلك المجتمعات ؛ فأباحوا الربا والخمر ، وأباحوا الفاحشة واعتبروها ممارسة للحرية ، ثم تمادوا في الإباحية الجنسية التي قننت الشذوذ ، وأصبح من السهل استصدار قانون يسمح بزواج المثل - أي الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة - . وهكذا فشى الخلط والخبط الذي لا ينتهي عند حد .

والمسلم الذي يؤمن بالله تعالى ويستمسك بالوحي يتذكر في مثل هذه الحال ما نقله لنا - معشر المسلمين - ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : " يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن :

- لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم .. " [٣]

ولقد كان ظهور مرض (الايدز) كافياً لردع هؤلاء عن هذه الفوضى الجنسية ، ولكن الأمر لم يكن كذلك فهناك أصوات في هولندا تنادي بالسماح بتجارة الأجساد حتى تصدر بها القوانين التي تمنع بعض الممارسات الحالية ، التي تطالب بالكشف الطبي على من يزاول هذه الأعمال في أماكن مخصصة تحتاج إلى ترخيص !!

(٢) **تحكيم العقل في وضع منهج الحياة** : وذلك من خلال مبدأ الاستمتاع بالحياة الدنيا وزينتها ؛ فالذي يتابع ما تنتجه المصانع وتدفع به إلى الأسواق ، وما تزينه وتروجه وسائل الإعلام بكل براعة ، يتبين له أن كل ذلك يصدر عن مبدأ « الاستمتاع بالحياة الدنيا وزينتها » . وذلك يتطلب الاهتمام بالحضارة المادية ومتعلقاتها . ولقد يسر التقدم التقني - والتكنولوجي - ، وتطور وسائل الاتصال

والانتقال تحقيق زيادة الاستمتاع الحسي بالحياة الدنيا وزينتها ، ومن ذلك :

❖ أراد الغرب السيطرة على المواد الخام والموارد الاقتصادية أينما وجدت في أي مكان خارج أوروبا وأمريكا ، فعمل على امتلاك الأسباب والوسائل التي تمكنه من تحقيق ذلك ، فابتدع فكرة الاستعمار قديماً وحديثاً ، وانتهى أخيراً بإقرار ما سمي بحق " التدخل " أي بـ " حق الأقوياء " في غزو الضعفاء ، وأصبح " عقاباً مشروعاً " لمقاومة الأقوياء ، ويكفي للتدليل على ذلك الاطلاع على جرائم الاستعمار القديم والجديد ، وقرارات " مجلس الأمن الدولي" ، وما صدر مؤخراً عن أمريكا وانجلترا بشأن ضرب الشعب العراقي ومحاصرته ، ومحاصرة السودان ، وما صنعه " الناتو " في منطقة البلقان !!

❖ أراد الغرب تسهيل مهمة الاستمتاع بالحياة الدنيا وزينتها ، فابتدع لذلك وسائل الترفيه ، ووسائل الإعلام ، ووسائل الاستمتاع بالفن المسموع والمنظور من « أغانٍ » و « مسرح » و « فيديو » .. الخ ، واللطيف أن هذا التصور للمنهج المعاصر ليس جديداً ، وإنما هو أصيل في الحضارة الإغريقية والرومانية ، بل كان من أهم أسباب دمارهما .

ولقد أرشد الخالق سبحانه إلى هذه السنة الاجتماعية الماضية في الأمم والشعوب ، وهي أن ما يصيب العباد وما ينزل بالبلاد من مصائب وبلاء وفساد ، مرجعه إلى الناس أنفسهم وما عملوا من معاصٍ وانحرافٍ عن منهج الحق قال تعالى : { ... **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير** } [الشورى : ٣٠] ، وقال عزَّ وجلَّ : { **فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ۞ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ۞ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ۞ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** } [طه : ١٢٣-١٢٦] .

❖ وأراد الغرب إفساد الفطرة البشرية بصرفها عن منهج الإسلام الذي ثبت لمفكريه أنه المنهج الواعد الذي قد يجد القبول ، فعمل على تشويه " الإسلام " وارتكز إلى أخطاء موجودة في بلاد المسلمين ، فرفع شعارات انخدع بها الناس منها « الشرعية الدولية » و « حقوق الإنسان » و « المساواة بين الرجل والمرأة » أو « تحرير المرأة » و « البقاء للأصلح » و « حق تقرير المصير » .. واللطيف في كل ذلك أنه باسم هذه الشعارات وتحت رايتها يُباد كثير من الشعوب الإسلامية ، وتهان أقليات منهم في قارات العالم المختلفة ، وقد نتج عن ذلك استعمار الأقوياء للضعفاء وافتراسهم ،

واسترجلت كثير من النساء ، وتخنث كثير من الرجال ، وتفككت الأسرة ، وتشرد الأطفال ، وجنح الأحداث، وانتشرت المخدرات بفعلها المدمر للإنسان والحياة ، وعمَّ الشذوذ ، وزادت نسبة المرضى بالقلق والأمراض النفسية والعصبية ، وزاد الإقبال على الانتحار .. والحبل على الجرار - كما يقال - .

٢- **المنظومة الغربية ترتكز إلى ركيزتين متكاملتين :**

(١) **الفرد هو محور الفلسفة الغربية :** كما يقول توينبي : (أصبح الفرد محور الفلسفة الغربية ، ذلك لأنه يتمتع بالعقل الخلاق ، وهو الأساس في تكوين الأسرة ثم المجتمع ، وهو محور النشاط البشري السياسي منه أو الاقتصادي أو الاجتماعي) .

وعليه فإن أي نظام من وجهة النظر الغربية يجب أن يصدر عن الفرد أولاً ، وهذه الحقيقة نلمسها - نحن الذين نعيش في الغرب - حيث تقوم الأنشطة المختلفة على أساس الحرية الفردية ، وهذه الحرية الفردية بالمفهوم الغربي هي القاعدة التي تقوم عليها جميع مؤسسات المجتمع .

(٢) **قيام الدولة الحديثة في الغرب يعتمد على الأركان الآتية** :

- ❖ مجموعة من الأفراد هم الشعب .
- ❖ أرض لها حدود معترف بها من جيرانها يعيش عليها شعب بصفة دائمة .
- ❖ منظومة التشريعات التي تنظم العلاقات بين الأفراد والمؤسسات المختلفة .
- ❖ سلطة مدنية ذات سيادة تشرف على تنفيذ القوانين ويراقب تطبيقها الشعب - الأفراد - وفق آلية الديمقراطية الحديثة .

ولا شك أن نمط منظومة العلاقات الرابطة بين الأفراد والمؤسسات هو الركن الذي يحدد خصائص الدولة والتي تميزها عن غيرها ، وهو في ذات الوقت الركن الذي تبرزه التيارات الفكرية والمذهبية ، وإن كان هناك خطوط عامة يمكن ملاحظتها في واقع الدولة في الغرب ، ولكن هذه الملامح العامة غير مستقرة مستقبلاً في ظل الظروف الحالية والمناداة بما وراء الحداثة من النسبية وهي :

- ❖ فصل الدين عن الدولة .. أو مبدأ العلمانية مع السماح بحق التدين الفردي الذي لا يناقض هذا المبدأ .
- ❖ اعتماد منظومة أخلاقية واجتماعية تصدر عن الحرية الفردية ، والمساواة ، والمصلحة ، وتعتمد شعار « حقوق الإنسان » ...
- ❖ حرية الفكر وتكوين أحزاب سياسية ليس على أساس الدين وتصدر عن المنظومة الغربية .

❖ اعتماد مبدأ اقتصاد السوق ، وحرية التجارة وتحرك رأس المال .

❖ مصدر النظم والتشريعات هو الهيئة البرلمانية المنتخبة من الشعب وفق الآلية الديمقراطية .

الخلاصة : لقد تقدم الغرب في مجال المدنية والعمران المادي ، وتطورت فيه وسائل الانتقال والاتصال تطوراً هائلاً مذهلاً ، وتقدمت التقنية المادية في عمارة الأرض وغزو الفضاء ، ولكن حدثت انتكاسة هائلة في القيم الروحية والمعنوية ، وعمت الفوضى الأخلاقية وساد التفكك الأسري والتفسخ الاجتماعي ، وانْتُقِصت كرامة الإنسان ، وأخاف أن لا يستفيد الغرب مما قاله الله تعالى في هذا الواقع ؛ حيث قال عزَّ وجلَّ : { **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون** } [الروم : ٤١]

للكلام صلة

الهوامش :

(١) محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة (دار الشروق ، ط ٤ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ص ٥٠٠)

(٢) برنتون : منشأ الفكر الحديث ـ ترجمة عبد الرحمن مراد ، ص ١٠٣

(٣) جزء من حديث حسن ، رواه ابن ماجة وغيره ، راجع صحيح الترغيب والترهيب : اختصار وتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، ج١ حديث رقم ٧٦١ ـ ص ٣٢٠

(٤) أرنولد توينبي : الحضارة في الميزان ، ترجمة أمين محمود الشريف ومحمد بدران ، إشراف وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٥٨م ، ص ٢٠٠